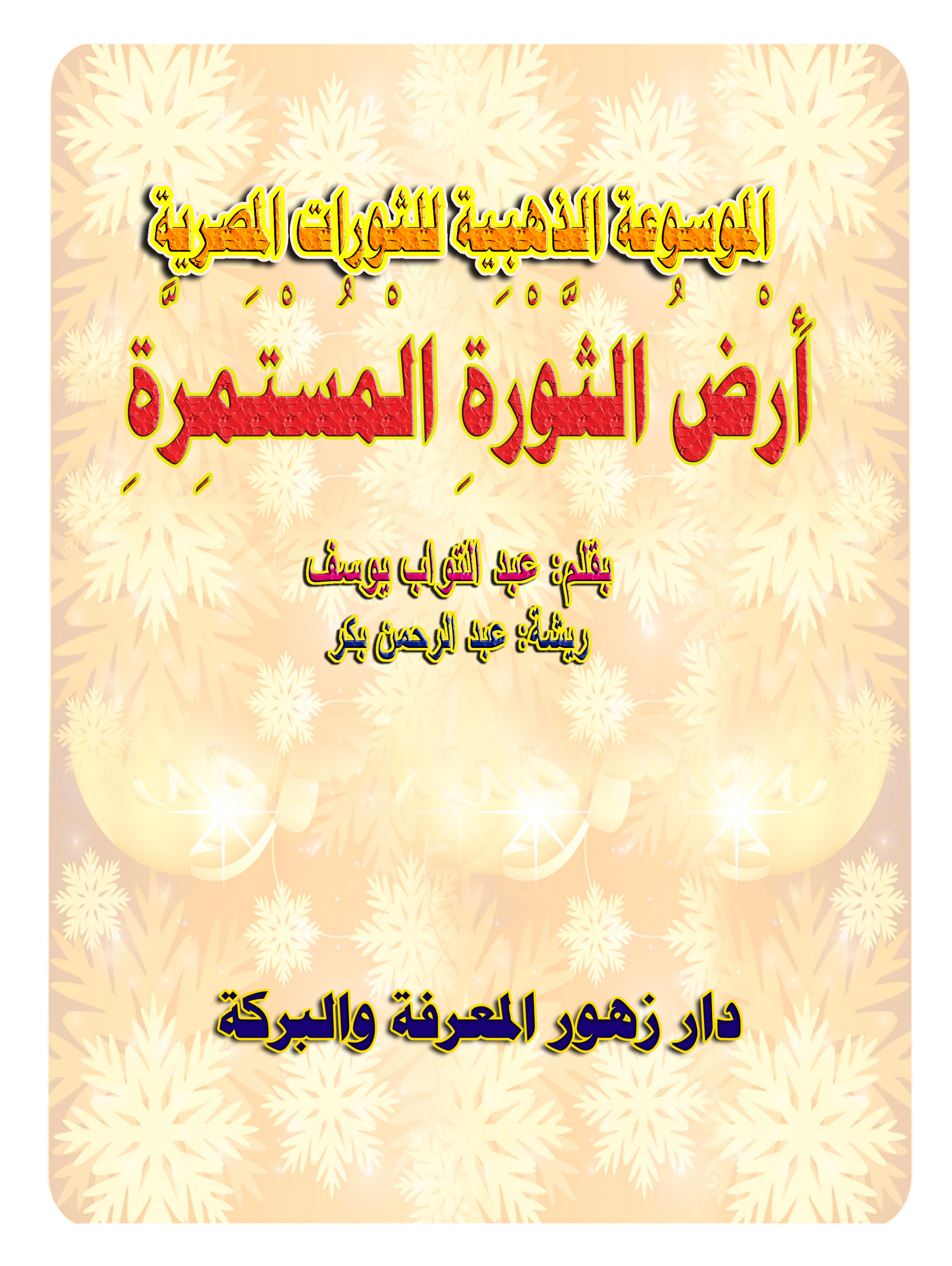


الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

أَرْضُ الثَّوْرَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ

بقلم: عبد التواب يوسف
ريشة: عبد الرحمن بكر

دار زهور المعرفة والبركة



رقم الإيداع
الترقيم والفهرسة المكتبية

الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

تأليف:
أ/ عبد التواب يوسف

رسوم واخراج فني:
عبد الرحمن بكر
اسكتشات معارك:
د/ ياسر نصر
تلوين: محمد حسن

دار زهور المعرفة والبركة

قَدَرُ مِصْرَ أَنْ تَسْتَمْتِعَ بِمَا سَمَّاهُ حمدانُ: عَبْقَرِيَّةَ الْمَكَانِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا جَعَلَهَا تَدْفَعُ ثَمَنًا غَالِيًا لِكَيْ تُحَافِظَ عَلَيْهِ، وَاضْطَرَّهَا نَتِيجَةً لِذَلِكَ أَنْ تَثُورَ دَائِمًا ضِدَّ الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا، الطَّامِعِينَ فِيهَا، وَمَا كَانُوا قَلِيلِينَ، بَلْ كَانُوا كَثِيرِينَ، أَتَوْا فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّرْقِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، كَمَا أَتَوًا مِنَ الْغَرْبِ حَيْثُ عَاشَتْ قَبَائِلُ فِي لِيبيَا..

ثُمَّ جَاءُوا مِنَ الْجَنُوبِ الَّذِي سَكَنَهُ نُوبِيُّونَ، فَضْلا عَنْ أَسَاطِيلَ حَمَلَتْ إِلَيْنَا الْيُونَانِيِّينَ وَالرُّومَانَ مِنَ الشَّمَالِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ، ثُمَّ الْفَرَنْسِيِّينَ وَالإِنْجِلِيزَ فِي تَارِيخٍ حَدِيثٍ..

وَلَمْ تَكُنْ مِصْرُ تَسْكُتُ عَلَيْهِمْ أَوْ تَصْبِرُ، بَلْ كَانَتْ تَهُبُّ ثَوْرَتُهَا عَلَيْهِمْ وَتُجْلِيهِمْ عَنْ أَرْضِهَا الطَّاهِرَةِ وَتَطْرُدُهُمْ مِنْهَا، الأَمْرَ الَّذِي جَعَلَ مِنْهَا مَوْطِنًا لِلثَّوَرَاتِ الْمُسْتَمِرَّةِ الْمُتَعَاقِبَةِ، مِمَّا جَعَلَ الْمُؤَرِّخِينَ يُطْلِقُونَ عَلَيْهَا "مَقْبَرَةُ الْغُزَاةِ"، وَيَرَوْنَ فِي أَهْلِهَا ثُوَّارًا عَلَى مَدَى التَّارِيخِ وَهَا هُوَ أمنميسُ بْنُ أمنميسَ الْكَبِيرِ يُوَاصِلُ رِوَايَةِ هَذَا التَّارِيخِ الطَّوِيلِ الْمُثِيرِ.

أَنَا "أمنميسُ بْنُ أمنميسَ الْكَبِيرِ" أَفْخَرُ بِجَدِّي "أَحْمُسَ" وَيَحِقُّ لَكُمْ يَا أَبْنَائِي وَيَا حَفَدَتِي أَنْ تَتِيهُوا بِهِ فَخْرًا، فَقَدْ نَفَضَ عَنْ أَرْضِنَا الْغُزَاةَ وَجَلَوْا مدحُورِينَ مَهْزُومِينَ وَطَارَدَهُمْ إِلَى آسْيَا، وَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ، فَلَمْ تَقُمْ لَهُمْ قَائِمَةٌ.. وَلَكِنْ قَامَتْ لِمِصْرِنَا إِمْبِرَاطُورِيَّةٌ امْتَدَّتْ مِنَ الشلالِ الرَّابِعِ عَلَى امْتِدَادِ ثَمَانِمِائَةِ مِيلٍ عَلَى مَجْرَى النِّيلِ، إِلَى نَهْرِ الْفُرَاتِ عَلَى مَدًى يَزِيدُ عَلَى أَلْفَيْ مِيلٍ..

.. وَامْتَدَّ الْعُمْرُ بِإِمْبِرَاطُورِيَّتِي هَذِهِ قَرْنَيْنِ وَنِصْفِ الْقَرْنِ مِنَ الزَّمَانِ، وَغَرِيبٌ أَنْ أُقَلِّبَ الصَّفَحَاتِ فِي تَارِيخِنَا، فَأَجِدُ لَنَا دَائِمًا إِمْبِرَاطُورِيَّةً تَعْقُبُ طَرْدَنَا لِلْغُزَاةِ، فَنَحْنُ فَرَاعِنَةٌ، لا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَنْ نَسُودَ إِلا اغْتِصَابُ الْغُزَاةِ لأَرْضِنَا.

وَفِي ظِلالِ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ الأُسْرَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ ظَهَرَ أَكْثَرُ مِنْ بَطَلٍ، لَهُ فِي التَّارِيخِ أَمْجَادٌ.. ظَهَرَ أَمُنْحُتُبُ، وَ"تُحُوتْمُسُ" الأَوَّلُ، وَتُحُوتْمُسُ الثَّانِي، وَحَتْشِبْسُوتُ، ثُمَّ تُحُوتْمُسُ الثَّالِثُ، الَّذِي سَطَرَ عَلَى جُدْرَانِ الْكَرْنَكِ أَرْوَعَ أَسَاطِيرِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ فِي تَارِيخِ الْحُرُوبِ..

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِ أَمُنْحُتُبُ الثَّالِثُ، رَاعِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ الَّذِي شَيَّدَ الْقُصُورَ، وَأَنْشَأَ الْمَعَابِدَ، وَنَحَتَ التَّمَاثِيلَ.. ثُمَّ إِخْنَاتُونُ، صَاحِبُ دِيَانَةِ التَّوْحِيدِ، وَأَوَّلُ مَنْ نَادَى بِالسَّلامِ، فِي عَالَمٍ مَزَّقَتْهُ الْحُرُوبُ، وَإِذَا مَا ظَهَرَ فِي عَالَمِكُمْ مَنْ يُنَادِي بِالسَّلامِ بَيْنَ الْبَشَرِ، وَالْمَجْدِ بَيْنَ بَنِي الإِنْسَانِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ نَبْعَ الْمَحَبَّةِ وَالسَّلامِ هُوَ إِخْنَاتُونُ، الَّذِي رَفْرَفَتْ فِي عَهْدِهِ حَمَامَاتُ السَّلامِ فِي سَمَاءِ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ مِصْرَ، وَاسْتَظَلَّ أَهْلُهَا فِي أَيَّامِهِ بِأَغْصَانِ الزَّيْتُونِ.. وَإِذَا نَمَتْ شَجَرَةُ السَّلامِ، وَاسْتَظَلَّ بِهَا عَالَمُكُمْ، وَقَامَ صَرْحُ الأَمْنِ وَالْمَحَبَّةِ، اذْكُرُوا إِخْنَاتُونَ، وَقُولُوا لِلْعَالَمِ إِنَّ هَذَا السَّلامَ الْعَالَمِيَّ بِذْرَةٌ زَرَعَهَا الْمُوَحِّدُ بِاللهِ مِنْ فِكْرِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى النَّاسِ.

لَقَدِ انْطَلَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْكَبِيرِ مِنْ إِخْنَاتُونَ فِي مِصْرَ،الَّذِي تَتَمَنَّى الإِنْسَانِيَّةُ أَنْ يَكُونَ شَاهِقًا هُوَ الَّذِي وَضَعَ أَوَّلَ لَبِنَةٍ فِي هَذَا الصَّرْحِ .

وَالْمُسْتَعْمِرُونَ الْغُزَاةُ يَا أَبْنَائِي وَحَفَدَتِي لا يُحِبُّونَ السَّلامَ، وَلا يُطِيقُونَهُ، فَالْحَرْبُ قِوامُ حَيَاتِهِمْ، وَالْقِتَالُ دُسْتُورُهُمْ، وَالسَّلْبُ وَالنَّهْبُ رِسَالَتُهُمْ، لِذَلِكَ لا تَعْجَبُوا حِينَ تَسْمَعُونَ بِثَوْرَةٍ هَبَّتْ فِي ظِلِّ سَلامِ إِخْنَاتُونَ، وَلا تَنْدَهِشُوا إِذَا سَمِعْتُمْ أَنَّ شَعْبَ إِخْنَاتُونَ الْوَادِعَ الْمُسَالِمَ كَانَ هَدَفًا لِجَمَاعَةِ الْحَيْثِيِّينَ الَّذِينَ أَقْبَلُوا مِنْ آسْيَا فِي جَحَافِلَ غَفِيرَةٍ، تَكْتَسِحُ أَمَامَهَا كُلَّ شَيْءٍ.. فَهَلْ يُقَدَّرُ لَهَا أَنْ تَكْتَسِحَ مِصْرَ؟!



كَانَتْ مِصْرُ حِينَ ذَاكَ تُؤْمِنُ بِالسَّلامِ، وَلَكِنَّهُ سَلامُ الأَقْوِيَاءِ لا الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، وَقَدْ أَغْرَى ذَلِكَ أَعْدَاءَهُمْ وَأَطْمَعَهُمْ فِيهِمْ، وَلَكِنْ بَنِي مِصْرَ أَبَوْا أَنْ يَقْعُدُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْحَيْثِيُّونَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِي آسْيَا الصُّغْرَى يُوَاجِهُونَهُمْ بِالْعَدَاءِ السَّافِرِ، وَقَدْ كَانُوا إِلَى وَقْتٍ قَرِيبٍ أَتْبَاعًا لِمِصْرَ، وَلَمْ يَقِفْ "حُورُ مُحِبّ" مَكْتُوفَ الْيَدَيْنِ، فَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ نِفِرْتِيتِي زَوْجَةَ إِخْنَاتُونَ انْسَاقَتْ وَرَاءَ أَهْوَائِهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا، فَأَوْفَدَتْ رَسُولاً إِلَى مَلِكِ الْحَيْثِيِّينَ لِيَجِيءَ إِلَى مِصْرَ وَيَتَزَوَّجَهَا، وَيُصْبِحَ وَارِثًا لِعَرْشِ الْفَرَاعِنَةِ، وَلَكِنْ شَعْبَ مِصْرَ، وَعَلَى رَأْسِهِ حُورُ مُحِبّ، أَبَى أَنْ يُذْعِنَ لِرَأْيِ نِفِرْتِيتِي، وَأَبَى إِلا أَنْ يَقُودَ الشَّعْبَ وَالْكَهَنَةَ، وَيُعْلِنَ تَنْحِيَتَهَا عَنِ الْعَرْشِ، هِيَ وَالْمَلِكِ الضَّعِيفِ سنخ رع، وَتَوْلِيَةَ تُوتِ عَنْخِ آمونْ، وَهَلَّلَ الشَّعْبُ وَكَبَّرَ، وَلَكِنْ حُورُ مُحِبّ هَتَفَ فِيهِمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ التَّهْلِيلِ، لأَنَّ الْحَيْثِيِّينَ يُغِيرُونَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، وَطَالَبَهُمْ بِأَنْ يَضَعُوا قِيَادَةَ الْجُنْدِ فِي يَدِ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ مِصْرَ.. فَكَانَ أَنِ اخْتَارُوهُ هُوَ، لأَنَّهُ كَانَ نَصِيرًا لِلشَّعْبِ، وَقَائِدًا لِلْجُنْدِ وَصَدِيقًا لِلْعَدَالَةِ، وَطَالَبُوهُ بِأَنْ يُنْقِذَ الْوَطَنَ مِنَ الأَعْدَاءِ الْمُسْتَعْمِرِينَ، وَأَنْ يُمَزِّقَ شَمْلَ الْغُزَاةِ..

وَكَانَ أَنِ اسْتَجَابَ، وَنَادَى أَنْ يُطْلَقَ نَفِيرُ الْجِهَادِ!، وَانْطَلَقَ حُورُ مُحِبّ يُدَمِّرُ قِلاعَ الْحَيْثِيِّينَ، وَيَجْتَثُّهُمْ مِنْ أَرْضِنَا، حَتَّى تَطَهَّرَتْ مِصْرُ مِنْهُمْ، وَتَوَلَّى فِي ذَلِكَ الْحِينِ تُوتُ عنخ آمون عَرْشَ مِصْرَ، وَزَارَ جُنُودَهُ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ عَلَى حُدُودِ بِلادِنَا الشَّرْقِيَّةِ،، وَهُنَاكَ شَاهَدَ

الْمَعَارِكَ التَّحْرِيرِيَّةَ الرَّائِعَةَ، وَرَأَى حُورَ مُحِبّ وَهُوَ يُشَتِّتُ جُمُوعَ الأَعْدَاءِ، وَيَدْفَعُهُمْ بَعِيدًا بَعِيدًا عَنْ بِلادِنَا. وَعَنْ حُدُودِهَا الشَّرْقِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ آمِنَةً مُسْتَقِرَّةً.

وَعِنْدَمَا رَجَعَ حُورُ مُحِبٌّ فُوجِئَ بِوَفَاةِ تُوت عنخ آمون، وَاضْطَرُّوا لأَنْ يَدْفِنُوهُ فِي مَقْبَرَةٍ امْتَدَّتْ فِي جَوْفِ الصَّخْرِ سِتَّةَ عَشَرَ مِتْرًا، حَوَتْ أَثْمَنَ وَأَرْوَعَ الْعُرُوشِ وَالتَّوَابِيتِ، وَكُلُّهَا مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ..

وَعَادَ حُورُ مُحِبّ بَعْدَ أَنْ مَكَّنَ الْمِصْرِيِّينَ فِي أَرْضِ فِينِيقيَا، لِيَجِدَ عَرْشَ مِصْرَ يَنْتَظِرُهُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ بَيْنَ تَهْلِيلِ الشَّعْبِ وَتَكْبِيرِهِ..



وَأنَا "أمنميسُ الْكَبِيرُ" فَخُورٌ بِجَدِّي حُور محبّ الَّذِي اجْتَثَّ الْحَيْثِيِّينَ، فَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ فِي مِصْرَ مَكَانٌ.. وَكَدَأْبِ بِلادِي بَعْدَ كُلِّ حَرْبٍ تَحْرِيرِيَّةٍ أَصْبَحَتْ لَهَا إِمْبِرَاطُورِيَّةٌ، وَحَاوَلَ الْحَيْثِيُّونَ أَنْ يَنْقَضُّوا عَلَى أَطْرَافِهَا، فَشَتَّتَ جَدِّي "سيتي"، فِرْعَوْنُ الْبِلادِ، جُمُوعَهُمْ، وَعَقَدَ مَعَ مَلِكِهِمْ مُعَاهَدَةً وُدِّيَّةً هِيَ أَوَّلُ مُعَاهَدَةِ سَلامٍ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ، وَمَا كَانَ يَبْغِي إِلا أَنْ يَسُودَ السَّلامُ رُبُوعَ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ مِصْرَ.. وَفِي عَهْدِهِ حَاوَلَتْ قَبَائِلُ مِنْ لِيبيَا فِي غَرْبِ مِصْرَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَى الدِّلْتَا، فَدَمَّرَهُمْ تَدْمِيرًا، وَحَفَرَ لَهُمْ قَبْرًا دَفَنَهُمْ فِيهِ.. وَعِنْدَمَا مَاتَ وَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ رَمْسِيسُ الثَّانِي، رَمْسِيسُ الأَكْبَرُ، أَعْظَمُ الْفَاتِحِينَ فِي تَارِيخِ بَلَدِي، كَانَ الْحَيْثِيُّونَ قَدْ نَقَضُوا الْمُعَاهَدَةَ وَانْقَضُّوا عَلَى أَطْرَافِ إِمْبِرَاطُورِيَّتِنَا ؛ فَزَحَفَ رَمْسِيسُ الثَّانِي عَلَيهِم، وَعِنْدَ "قَادِشَ" هَزَمَهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ، فَتَقَدَّمُوا صَاغِرِينَ يَطْلُبُونَ الْهُدْنَةَ، وَيَرْجُونَ السَّلامَ، وَقَبِلَ رَجَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ عَادُوا يُشْعِلُونَ نَارَ الْفِتْنَةِ، فَأَدَّبَهُمْ وَأَخْضَعَهُمْ، وَتَقَدَّمَ مَلِكُهُمْ "حيتاسارُ" إِلَى مِصْرَ وَمَعَهُ ابْنَتُهُ لِيُقَدِّمَهَا زَوْجَةً الْفِرْعَوْنِ الْعَظِيمِ: رَمْسِيس!، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ فِي حَفْلٍ بَهِيجٍ رَائِعٍ..

وَعَاشَ رَمْسِيسُ طَوِيلاً، وَعِنْدَمَا تَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ "منبتاحُ" عَادَتْ قَبَائِلُ لِيبيَا تُهَاجِمُ حُدُودَ مِصْرَ الْغَرْبِيَّةَ، وتُغِيرُ عَلَى الدِّلْتَا، فَتَصَدَّى لَهُمْ فِي جَيْشٍ فِرْعُونِيٍّ بَاسِلٍ، وَدَفَعَ بِهِ شَرَّهُمْ وَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ..

وَتَلَفَّتَ منبتاحُ جِهَةَ الشَّرْقِ، وَتَطَلَّعَ إِلَى آسْيَا، وَهُنَاكَ عَلَى حُدُودِ مِصْرَ كَانَ يَرْبِضُ عَدُوٌّ مُدَمِّرٌ هُمْ

بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَرَغبُوا فِي أَنْ يُقلِقُوا الْحُكْمَ الْمِصْرِيَّ فِي هَذِهِ الْبِلادِ، وَأَنْ يُثِيرُوا أَهْلَهَا وَيُفَرِّقُوا وَحْدَتَهُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ منبتاحُ، وَأَبَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاسْتَأْصَلَهُمْ، وَدَانَتْ أَرْضُهُمْ لِمِصْرَ، وَاتَّحَدَتِ الْبِلادُ وَعَمَّ السَّلامُ.. وَلَكِنْ إِلَى حِينٍ!

لَقَدْ دَبَّتْ فِي الْبِلادِ رُوحُ الانْقِسَامِ، فَهَبَطَتْ مَعْنَوِيَّاتُ الشَّعْبِ، وَزَحَفَ الْغُزَاةُ، وَقَبَرْتُهُمْ فِي أَرْضِنَا وَطَرَدْتُهُمْ خَارِجَهَا.. سَامِحُونِي، فَإِنَّنِي أَرْوِي تَارِيخًا طَوِيلاً وَقَدِيمًا يَحْتَاجُ مِنِّي إِلَى تَفَاصِيلَ كَثِيرَةٍ، وَأُرِيدُ أَنْ أُوجِزَ مَا جَرَى وَأَضَعُهُ عَلَى وَرَقِ الْبَرْدِيِّ لِيَبْقَى لَكُمْ..



عَادَ الخَطَرُ يُهَدِّدُ الْبِلادَ وَالْعِبَادَ، عَادَ يَأْتِي مِنْ قَبَائِلِ الْغَرْبِ، الَّذِينَ هَاجَمُوا مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى فِي عَهْدِ رَمْسِيسَ الثَّالِثِ، فَرَدَّهُمْ وَأَعْمَلَ فِيهِمْ سَيْفَهُ تَقْتِيلاً.. كَمَا هَدَّدَ الآسْيَوِيُّونَ حُدُودَ مِصْرَ الشَّرْقِيَّةَ، وَزَحَفُوا إِلَى فِينِيقيَا وَمِنْهَا إِلَى مِصْرَ، غَيْرَ أَنَّ أُسْطُولَ رَمْسِيسَ الثَّالِثِ دَمَّرَ أُسْطُولَهُمْ، وَاسْتَطَاعَتْ جُيُوشُهُ الْبَرِّيَّةُ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى جُنُودِهِمْ..

وَاسْتَمَرَّتْ مِصْرُ حُرَّةً مُسْتَقِلَّةً، مَرْفُوعَةَ الشَّأْنِ، حَتَّى سَرَتْ فِي جَنَبَاتِهَا فَوْضَى ضَارِبَةُ الأَطْنَابِ مَزَّقَتْ مُلْكَ الْمِصْرِيِّينَ، وَأَضْعَفَتْ شَأْنَهُمْ، وَتَرَكَتْهُمْ فِي حَالٍ شَدِيدٍ مِنَ السُّوءِ، فَفَقَدَتْ مِصْرُ نُفُوذَهَا فِي فِينِيقيَا، وَأَصْبَحَتْ غَيْرَ قَادِرَةٍ بَعْدَ انْقِسَامِهَا عَلَى أَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا شَرَّ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْغَرْبِ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَجْلِسُوا عَلَى عَرْشِ مِصْرَ فَتْرَةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَانِ، حَاوَلُوا خِلالَهَا أَنْ يُقَلِّدُوا الْفَرَاعِنَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَنْطَلِي عَلَى الشَّعْبِ الَّذِي سَادَ الْعَالَمَ يَوْمًا مَا، فَهَبَّتْ فِي وَجْهِهِمُ الثَّوَرَاتُ، الْوَاحِدَةُ تِلْوَ الأُخْرَى، إِلَى أَنِ اسْتَطَاعَوُا أَنْ يُقْصُوهُمْ عَنِ الْحُكْمِ بِمُسَاعَدَةِ النُّوبِيِّينَ، غَيْرَ أَنَّ الأَشُورِيِّينَ حَنَقُوا عَلَى مِصْرَ مِنْ أَجْلِ مُحَاوَلاتِهَا الْمُسْتَمِرَّةِ وَكِفَاحِهَا لِتَحْرِيرِ أَرْضِ فِينِيقيَا، فَهَاجَمُوا الدِّلْتَا وَهَزَمُوا النُّوبِيِّينَ، وَتَمَّ لَهُمُ الاسْتِيلاءُ عَلَى مِصْرَ..

وَأَقَامُوا "بسمتيكَ" حَاكِمًا لِمِصْرَ، فَإِذَا بِهِ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا يَنْقَلِبُ مُحَرِّرًا لِمِصْرَ، فَيُهَاجِمُ الأَشُورِيِّينَ

وَيُطَارِدُهُمْ، وَيَهْزِمُهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ، وَيُعْلِنُ مِصْرَ حُرَّةً كَرِيمَةً.. يَسْعَى الأَشُورِيُّونَ لِخَطْبِ وُدِّهَا يَوْمَ هَاجَمَهُمُ الآسْيَوِيُّونَ!

وَفِي ذَلِكَ الحِينِ كَانَ الْيُونَانِيُّونَ يَفِدُونَ إِلَى مِصْرَ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانا، وَزَادَ عَدَدُهُمْ وَنُفُوذُهُمْ.. وَعِنْدَمَا تَوَلَّى "ابريسُ" حَفِيدُ بسمتيكَ، حكَمُ مِصْرَ كَانَ يَمِيلُ إِلَى الْيُونَانِيِّنَ وَيُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ، وَضَاقَ الْمِصْرِيُّونَ بِذَلِكَ، فَدَفَعُوا مِنْ بَيْنَ بَنِيهِمْ أَحْمُسَ الثَّانِي، ذَلِكَ الْبَطَلُ الْجَدِيدُ أمازيسُ الَّذِي قَادَ الثَّوْرَةَ ضِدَّ "ابريسَ".



وَكَانَ الْقدَرُ يَدَّخِرُ لِمِصْرَ غَازِيًا جَدِيدًا، ذَلِكَ هُوَ بِلادُ فَارِسَ، فَقَدْ ظَهَرَتْ فِي الأُفُقِ حَضَارَتُهَا النَّامِيَةُ، وَصَارَتْ لَهَا إِمْبِرَاطُورِيَّةٌ واسِعَةٌ وَتَقَدَّمَتْ جُيُوشُهَا إِلَى مِصْرَ بِقِيَادَةِ قمبيزَ سَنَةَ 525 ق.م، وَاسْتَطَاعَ نَتِيجَةَ لِخِيَانَةِ ضَابِطٍ يُونَانِيٍّ أَنْ يَحْتَلَّ مِصْرَ بِرَغْمِ اسْتِمَاتَةِ أَهْلِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنْهَا.

وَحَاوَلَ الْفُرْسُ أَنْ يُقَلِّدُوا الْفَرَاعِنَةَ الأَمْجَادَ، أَجْدَادِي، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ مَا كَانَ يَنْطَلِي عَلَى بَنِي مِصْرَ، الَّذِينَ يَعْتَزُّونَ بِمِصْرِيَّتِهِمْ، وَيُؤْمِنُون بِقَوْمِيَّتِهِمْ، وَيَحْرِصُونَ عَلَى حُرِّيَّتِهِمْ، فَثَارُوا ضَدَّ حُكَّامِهِمُ الأَجَانِبِ، وَاسْتَطَاعُوا بَعْدَ كِفَاحٍ مَرِيرٍ أَنْ يَهْزِمُوا الْفُرْسَ، وَيَطْرُدُوهُمْ مِنَ الْبِلادِ، وَيُقِيمُوا فِي مَكَانِهِمْ حُكْمًا قَوْمِيًّا، وَلَمْ يَتَوَلَّ فِي أَثْنَاءِ حُكْمِهِمُ الْفَارِسِيِّ سِوَى "دارا" الأَوَّلِ وَوَلَدِهِ، ثُمَّ انْتَزَعَ مِنْهُمُ الْعَرْشَ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ سَنَةَ 486 ق.م

حَفَدَةُ الْفَرَاعِنَةِ مِنْ بَلْدَةِ سايس (صار الحجر) مَرْكَزِ كَفْرِ الزَّيَّاتِ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ "امنرنوس"، فعَلا شَأْنُهَا وَارْتَفَعَ عَلَمُهَا بِفَضْلِ مُؤَسِّسِهَا "نختبلو الأول"..

وَظَلَّتْ مِصْرُ حُرَّةً خَمْسَةَ وَسِتِّينَ عَامًا، ثُمَّ عَاوَدَ الْفُرْسُ هُجُومَهُمْ عَلَيْهَا فِي عام 342 ق.م. وَبَعْدَ صِرَاعٍ دَامَ، تَمَكَّنُوا مِنْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى عَرْشِ مِصْرَ، وَلَكِنْ لَمْ يَمْضِ عَلَيْهِمْ فِي مِصْرَ سِوَى عَشَرَةِ أَعْوَامٍ، كَانَتْ كُلُّهَا قَلاقِلَ وَاضْطِرَابَاتٍ وَثَوَرَاتٍ، وَعَلَى أَرْضِ مِصْرَ هُزِمَتْ جُيُوشُ فَارِسَ، وَدَخَلَ الإِسْكَنْدَرُ الأَكْبَرُ

أَرْضَ الْفَرَاعِنَةِ.. وَصَارَتْ مِصْرُ تَابِعَةً لِإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الإِسْكَنْدَرِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، وَلَكِنْ بَطْلَيْمُوسُ وَرِيثُ الإِسْكَنْدَرِ، أَعْلَنَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى مِصْرَ، وَاسْتَقَلَّ بِهَا وَبَدَأَ بِهِ حُكْمُ الْبَطَالِمَةِ فِي مِصْرَ.

وَعَلَى أَرْضِ مِصْرَ دَارَ الصِّرَاعُ بَيْنَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ، كَمَا دَارَ مِنْ قَبْلُ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْيُونَانِ، وَقَدِ انْتَهَى حُكْمُ الْيُونَانِيِّينَ لِمِصْرَ بِقُدُومِ يُولْيُوسَ قَيْصَرَ إِلَيْهَا عَامِ 46 ق.م. وَقَدْ تَرَكَ فِي مِصْرَ حَامِيَةً رُومَانِيَّةً لِمُسَاعَدَةِ كِلِيُوبَاتْرَا، ثُمَّ تَمَّ اسْتِيلَاءُ رُومَا عَلَى مِصْرَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أَكْتيوم الْبَحْرِيَّةِ، وَهَزِيمَةِ كِلِيُوبَتْرَا..



وَاسْتَتَبَّ الأمْرُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ لأبَاطِرَةِ الرُّومَانِ، وكَانَ أوَّلَهُمْ أوجسطس "أكتافيوس" الَّذِي جَاءَ إِلَى بِلادِنَا فِي جَيْشٍ جَرَّارٍ لا قِبَلَ لَنَا، وَلا لِلْيُونَانِيِّينَ بِمُقَاوَمَتِهِ.. وَقَدِ اسْتَمَرَّ حُكْمُهُمْ فِي مِصْرَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ حَتَّى عَامِ 640 م. وَخِلالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ الطَّوِيلَةِ هَبَّتْ ثَوَرَاتُ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ مُحَاوِلَةً أنْ تَرْفَعَ عَنِ الْبِلادِ نِيرَ الْحُكْمِ الأَجْنَبِيِّ، كَمَا قَاوَمَ الأبَاطِرَةُ انْتِشَارَ الْمَسِيحِيَّةِ، وَاسْتُشْهِدَ الْكَثِيرُونَ مِنْ أقْبَاطِ مِصْرَ فِي عَصْرِ الرُّومَانِ.. وَقَدْ سَاءَتِ الْبِلادُ فِي عَهْدِهِمْ إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ، لِشِدَّةِ فَقْرِ النَّاسِ، وَابْتِزَازِ الْحُكَّامِ لِلأَمْوَالِ وَلاخْتِلالِ الأمْنِ. وَقَدِ اسْتَطَاعَ الْفُرْسُ أنْ يَنْتَزِعُوا مِصْرَ مِنْ رُومَا فَتْرَةً قَصِيرَةً لا تَزِيدُ عَلَى 12 عَامًا.. وَلَكِنَّ الرُّومَانَ عَادُوا أشَدَّ قَسْوَةً وَفُجُورًا مِمَّا كَانُوا، وَاسْتَمَرُّوا يُذِيقُونَ شَعْبَ مِصْرَ الأمَرَّيْنِ حَتَّى الْيَوْمَ الَّذِي أكْتُبُ لَكُمْ فِيهِ يَا حَفَدَتِي وَأحِبَّائِي وَأعِزَّائِي..

وَأنَا الْيَوْمَ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ تَجَاوَزْتُ سِنَّ الشَّبَابِ فَإِنَّنِي أتَعَاوَنُ مَعَ فِئَةٍ مِنْ مُوَاطِنِي الْمِصْرِيِّينَ، بُغْيَةَ تَحْرِيرِ بِلادِنَا، وَأنَا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لأنْ أبْذُلَ حَيَاتِي لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ.. وَهُمْ يَقُولُونَ إِنِّي أثِيرُ الْفِتَنَ، وَأدَبِّرُ الْمُؤَامَرَاتِ، وَإِنَّ مَصِيرِي الْمَوْتُ، وَأقُولُ: إِنَّهُ لا يَبْقَى الْمُسْتَعْمِرُ فِي بِلادِنَا إِلا لِلْفِتَنِ، وَإِنَّ الْمُحْتَلِّينَ وَحْدَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُدَبِّرُونَ الْمُؤَامَرَاتِ لِيُثَبِّتُوا أقْدَامَهُمْ..

وَالْمَوْتُ مَصِيرُهُمْ هُمْ، وَقَدْ قَتَلْتُ بِيَدِي مِنْ بَيْنِهِمْ عَشَرَاتٍ تَضُمُّهَا قُبُورُ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَسَوْفَ تُصْبِحُ بِلادِي مَقْبَرَةً لَهُمْ كَمَا كَانَتْ دَائِمًا مَقْبَرَةً لِلْغُزَاةِ.

وَتَحِيَّةٌ مِنْ جَدِّكُمْ "أمنميسَ بْنِ أمنميسَ الْكَبِيرِ" الَّذِي يَوَدُّ أنْ يَعِيشَ وَيَمْتَدَّ بِهِ الأجَلُ لِيَرَى مِصْرَ حُرَّةً..

أنَا "أمنميسُ بْنُ أمنميسَ الْكَبِيرِ" أعُودُ بَعْدَ سِنِينَ مِنْ تَسْجِيلِ قِصَّتِي السَّابِقَةِ فَأُوَاصِلُ حَدِيثِي إِلَيْكُمْ يَا حَفَدَتِي وَيَا أَبْنَائِي وَأَعِزَّائِي، فَقَدْ جَرَتْ عَلَى أَرْضِنَا أَحْدَاثٌ جِسَامٌ، اضْطُرِرْتُ إِزَاءَهَا إِلَى أَنْ أَنْقُشَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ الصَّغِيرِ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ.. وَهِيَ كَلِمَةٌ أَخِيرَةٌ أَقُولُهَا قَبْلَ أَنْ أَمْضِيَ.. لَقَدْ حَفَرْنَا لِلْغُزَاةِ الرُّومَانِ قَبْرًا، وَمَضَوْا عَنْ بِلادِي إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ، وَامْتَلأَتْ سَمَاءُ مِصْرَ بِصَوْتٍ حُلْوٍ يُنَادِي:

-اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ.. أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ..



إِنَّهَا يَا أَبْنَائِي دَعْوَةُ السَّمَاءِ.. دَعْوَةُ السَّلامِ.. تِلْكَ الدَّعْوَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا إِلَى مِصْرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الَّذِي عَاوَنَنِي، وَعَاوَنَ بَنِي مِصْرَ، عَلَى حَفْرِ قَبْرٍ لِلْغُزَاةِ، وَعَلَى تَطْهِيرِ أَرْضِنَا مِنْ هَؤُلاءِ غِلاظِ الْقَلْبِ، الْقُسَاةِ الْعُتَاةِ.. وَالْوَافِدُونَ عَلَيْنَا نَاسٌ وُجُوهُهُمْ سَمْحَةٌ، وَنُفُوسُهُمْ طَيِّبَةٌ، يُؤْمِنُونَ بِدِينٍ جَدِيدٍ، كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِهِ وَأَنَا فِي شَرْخِ الشَّبَابِ.. وَلَكِنِّي الْيَوْمَ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، لا فُسْحَةَ مِنَ الْوَقْتِ لَدَيَّ لأُفَكِّرَ وَأَبْحَثَ فِي الْعَقَائِدِ، وَأَتْرُكُ لَكُمْ أَمْرَ الدِّينِ الْجَدِيدِ، الَّذِي حَرَّرَنَا مِنَ الرُّومَانِ،



وَأَمْضَى قَرِيرَ الْعَيْنِ، وَأَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَّ وَاذْكُرُونِي، وَأَجْدَادِي الْفَرَاعِنَةَ الْعِظَامَ، وَأُوصِيكُمْ بِالأَرْضِ وَالنِّيلِ.. وَمِصْرَ!..

وَتَنْتَهِي هُنَا مُذَكِّرَاتُ أمنميسَ بْنِ أمنميسَ الْكَبِيرِ الَّتِي تَعَرَّضَ فِيهَا إِلَى الأَطْمَاعِ الْخَارِجِيَّةِ وَالنِّزَاعَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ بَعْدَ اضْمِحْلالِ الدَّوْلَةِ فِي مِصْرَ الْقَدِيمَةِ، بَعْدَ أَنِ امْتَدَّ الْعُمُرُ طَوِيلاً بِحَضَارَتِهَا، وَالْحَضَارَاتُ مِثْلَ الْبَشَرِ تَشِيخُ وَتَضْمَحِلُّ، لِتَأْتِي مِنْ بَعْدِهَا حَضَارَاتٌ شَابَّةٌ.. تَسْعَى لِلتَّقَدُّمِ وَالارْتِقَاءِ، وَتَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ انْتَهَى الآخَرُونَ، وَالْقَارِئُ لِلتَّارِيخِ تُدْهِشُهُ مُحَاوَلاتُ الْبُلْدَانِ الْمُحِيطَةِ بِمِصْرَ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا..

وَكَثِيرُونَ يَكْتَفُونَ- عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْ "فَتْحِ مِصْرَ" عَلَى يَدِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِأَنَّ الأَمْرَ كَانَ سَهْلا مَيْسُورًا، لِأَنَّ الرُّومَان أَذَاقُوا الْمِصْرِيِّينَ صُنُوفَ الْعَذَابِ، وَأَنَّ أَقْبَاطَ مِصْرَ أَعَانُوا الْعَرَبَ فِي حَرْبِهِمُ الَّتِي انْتَهَتْ بِطَرْدِ الرُّومِ الْبِيزَنْطِيِّينَ مِنْهَا، كَمَا طُرِدُوا مِنَ الشَّامِ.. وَقَدْ مَرَّ الْقَرْنُ الْهِجْرِيُّ الأَوَّلُ دُونَ صِدَامٍ كَبِيرٍ بَيْنَ الْوَافِدِينَ الْقَادِمِينَ، وَبَيْنَ الْمُقِيمِينَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ أَصْحَابِهَا الأَصْلِيِّينَ، وَقَدْ تَحَوَّلَ بَعْضُهُمْ إِلَى اعْتِنَاقِ الإِسْلامَ ، وَبَقِيَتْ نِسْبَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْهُمْ مَشْغُولِينَ عَنِ الْعَقِيدَةِ بِالانْكِبَابِ عَلَى عَمَلِهِمْ فِي فِلاحَةِ الأَرْضِ، وَكَسْبِ لُقْمَةِ الْعَيْشِ، وَهُنَاكَ مَنْ لا يَطِيبُ لَهُمُ الْحَدِيثُ عَنْ كَيْفَ اعْتَنَقَتِ الأَغْلَبِيَّةُ الإِسْلامَ..

-هَلْ عَنْ رَغْبَةٍ وَاقْتِنَاعٍ أَمْ أَنَّ ذَلِكَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ هَرَبًا مِنَ الْجِزْيَةِ، وَبِضُغُوطٍ مِنَ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ؟

- هُنَاكَ مُتَشَدِّدُونَ يَرَوْنَ أَنَّ مِصْرَ لَمْ تَرَ خَيْرًا مُنْذُ دَخَلَهَا الْعَرَبُ، وَبَلَغَ الأَمْرُ ذُرْوَتَهُ بِتَصْرِيحٍ مِنْ رَجُلِ دِينٍ قِبْطِيٍّ يَقُولُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ضُيُوفٌ عَلَى مِصْرَ، وَهُنَاكَ مَنْ يَرَى أَنَّ عَكْسَ ذَلِكَ هُوَ الصَّحِيحُ، وَفِي تَقْدِيرِنَا أَنَّ هَذَا وَذَاكَ تَطَرُّفٌ مَرْفُوضٌ وَأَنَّ مِصْرَ لِلْمِصْرِيِّينَ جَمِيعًا..

فِي ظَنِّ الْبَعْضِ أَنَّ مِصْرَ بَعْدَ خُرُوجِ الرُّومَانِ اسْتَسْلَمَتْ وَأَسْلَمَتْ، وَلَمْ يَحْتَجْ ذَلِكَ إِلا وَقْتًا قَصِيرًا، وَيُفَضِّلُ الْبَعْضَ عَدَمَ الْخَوْضِ فِي هَذَا التَّارِيخِ، إِذْ يَرَوْنَهُ شَائِكًا، وَقَدْ يُوسِعُ مِنَ الْخِلافِ مَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالأَقْبَاطِ..

وَفِيمَا نَرَى لا خَيْرَ قَطُّ مِنَ التَّعَرُّضِ لِحَقِيقَةِ مَا جَرَى وَمَا حَدَثَ؛ لأَنَّهُ يَزِيدُ مِنْ تَوْطِيدِ الثِّقَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَيَكْشِفُ عَنْ أَصَالَةِ هَذَا الشَّعْبِ وَعَظَمَتِهِ وَرَوْعَتِهِ..

فَحْصُ جِينَاتِ الْمِصْرِيِّينَ أَثْبَتَ حَقِيقَةً مُذْهِلَةً: أَنَّهَا وَاحِدَةٌ مُتَوَارَثَةٌ عَبْرَ آلافِ السِّنِينَ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ شَعْبٍ فِي الدُّنْيَا يَمْتَلِكُ مَا يَمْتَلِكُهُ بَنُو مِصْرَ مِنْ أَصَالَةٍ مُمْتَدَّةٍ عَبْرَ آلافِ السِّنِينَ..

هَذِهِ حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ، وَيَزِيدُ عَلَيْهَا أَنَّ الْعِلاقَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ فِي حَالَةِ الْخِلافِ نَاتِجَةٌ عَنْ أَغْلَبِيَّةٍ

وَأَقَلِّيَّةٍ، لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ، وَلَيْسَتْ نَتِيجَةً لِصَدَمَاتٍ عَقَائِدِيَّةٍ..

بَعْدَ خُرُوجِ الرُّومَانِ قَاوَمَتْ مِصْرُ الْوَافِدِينَ الْجُدُدَ مُقَاوَمَةً لَمْ يَجِدْهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْعَرَبُ فِي أَيِّ بَلَدٍ فَتَحُوهُ.. وَكَانَتْ هُنَاكَ ثَوَرَاتٌ وَانْتِفَاضَاتٌ كَبِيرَةٌ، غَيْرَ أَنَّ الْجُذُورَ الْوَاحِدَةَ، وَإِيمَانَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ دِينُهُمْ (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وَجُهْدَهُمْ لإِشَاعَةِ الْعَدْلِ أَضَافَ كَثِيرًا بَلْ خَلَقَ مَوْقِفًا عَبْقَرِيًّا بِلا مَثِيلٍ فِي الْبُلْدَانِ الأُخْرَى.

لَمْ يَكُنْ "فَتْحُ مِصْرَ" مُحَاوَلَةً مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ غَزْوًا وَرَغْبَةً فِي الاسْتِيلاءِ عَلَيْهَا وَاسْتِغْلالِهَا، وَرَأَى بَنُو مِصْرَ أَنَّ قُدُومَهُمْ مَا هُوَ إِلا امْتِدَادٌ لِحَرْبِهِمْ ضِدَّ الرُّومَانِ.. لِذَلِكَ لَمْ يَرَ أَغْلَبُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ مَا حَدَثَ كَانَ اسْتِعْمَارًا كَمَا حَدَثَ مِنْ جَانِبِ أُورُبَّا مِنْ قَبْلِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ.. وَلَمْ تَكُنِ الثَّوَرَاتُ وَالانْتِفَاضَاتُ دِينِيَّةً عَقَائِدِيَّةً، بَلْ كَانَ لَهَا فِي الْغَالِبِ الأَعَمِّ صِرَاعَاتٌ اقْتِصَادِيَّةٌ مُوَجَّهَةٌ ضِدَّ الْوُلاةِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْزَحُونَ الثَّوَرَاتِ وَيَسْتَغِلُّونَ أَهْلَ الْبَلَدِ أَصْحَابَ الْمَصْلَحَةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ فِي الْمُوَاجَهَةِ، كَانُوا مَعًا أَقْبَاطًا وَمُسْلِمِينَ ضِدَّ الظُّلْمِ،وَضَرَبَ الطَّرَفَانِ مَثَلا أَعْلَى فِي التَّسَامُحِ، وَرَأَى كُلٌّ مِنْهُمَا الْعَقِيدَةَ أَمْرًا شَخْصِيًّا، وَأَنَّ لِكُلِّ فَرْدٍ الْحُرِّيَّةَ فِي أَنْ يَبْقَى عَلَى دِينِهِ، أَوْ يَتَحَوَّلَ وَيَعْتَنِقَ الدِّينَ الْجَدِيدَ، وَلا يَذْكُرُ التَّارِيخُ حُرُوبًا أَوْ صِدَامًا وَقَعَ خِلالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الطَّوِيلَةِ وُصُولا لِلْعَصْرِ الْحَدِيثِ..

وَلَمْ يَنْضَمَّ أقبَاطُ مِصْرَ إلَى الْفِرِنْجَةِ أيْ مَنْ نُسَمِّيهِمُ الصَّلِيبِيِّينَ بَلْ إنَّهُمْ قَاتَلُوا بِجَانِبِ مُوَاطِنِيهِمُ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ الْغُزَاةِ وَالْوُلاةِ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْلُبُونَ مِصْرَ قُوَّتَهَا:
هُمْ يَأخُذُونَ مِنْ مُسْلِمِيهَا الْخَرَاجَ، وَمِنْ الْمَسِيحِيينَ الْجِزْيَةَ، لِيَنْعَمَ السَّادَةُ الْحَاكِمُونَ بِالثَّرْوَةِ وَالسُّلْطَةِ مَعًا، هَذَا مَا تَمَنَّيْتُ أنْ أسْمَعَهُ مِنْ فَوْقِ مِنْبَرِ الْمَسْجِدِ، وَفِي موعِظَةِ الْكَنِيسَةِ، بَدِيلاً عَنْ تَهْدِيدِي لَيْلَ نَهَارَ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ إذَا لَمْ أرْضَخْ لأولِى الأمْرِ وَسَادَتِي الْحَاكِمِينَ..
وَكَانَ يُزْعِجُنِي ألا يُبَشِّرُونَنِي بِالْجَنَّةِ إذَا أنَا رَفَعْتُ صَوْتِي ضِدَّ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدَادِ وَإذَا أنَا رَفَعْتُ سِلاحِي فِي وُجُوهِهِمْ.
وَدَرَّبْتُ نَفْسِي فِي طُفُولَتِي ألا أنْطِقَ بِكَلِمَةِ "آمِينَ" وَالشَّيْخ يَدْعُو لِلْحَاكِمِ، فَقَدْ كُنْتُ أرَاهُ نِفَاقاً، وَقَدْ رَأيْتُ فِي قَرْيَتِي صُنُوفَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ مَا جَعَلَنِي كَارِهًا لأسْرَةِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ وَمُؤَسِّسِهَا الَّذِي جَعَلَهَا مَزْرَعَةً لِلْعَائِلَةِ،
وَنَظَّمَ جَيْشًا يُحَارِبُ مِنْ أجْلِ سَادَتِهِ الأتْرَاكِ، وَسَيَّرَهُ لِلْحَرْبِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي الْيُونَانِ حَيْثُ تَحَطَّمَ أسْطُولُنَا.. بَلْ ذَهَبَ بِهِ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ إلَى الْمِكْسِيكِ..

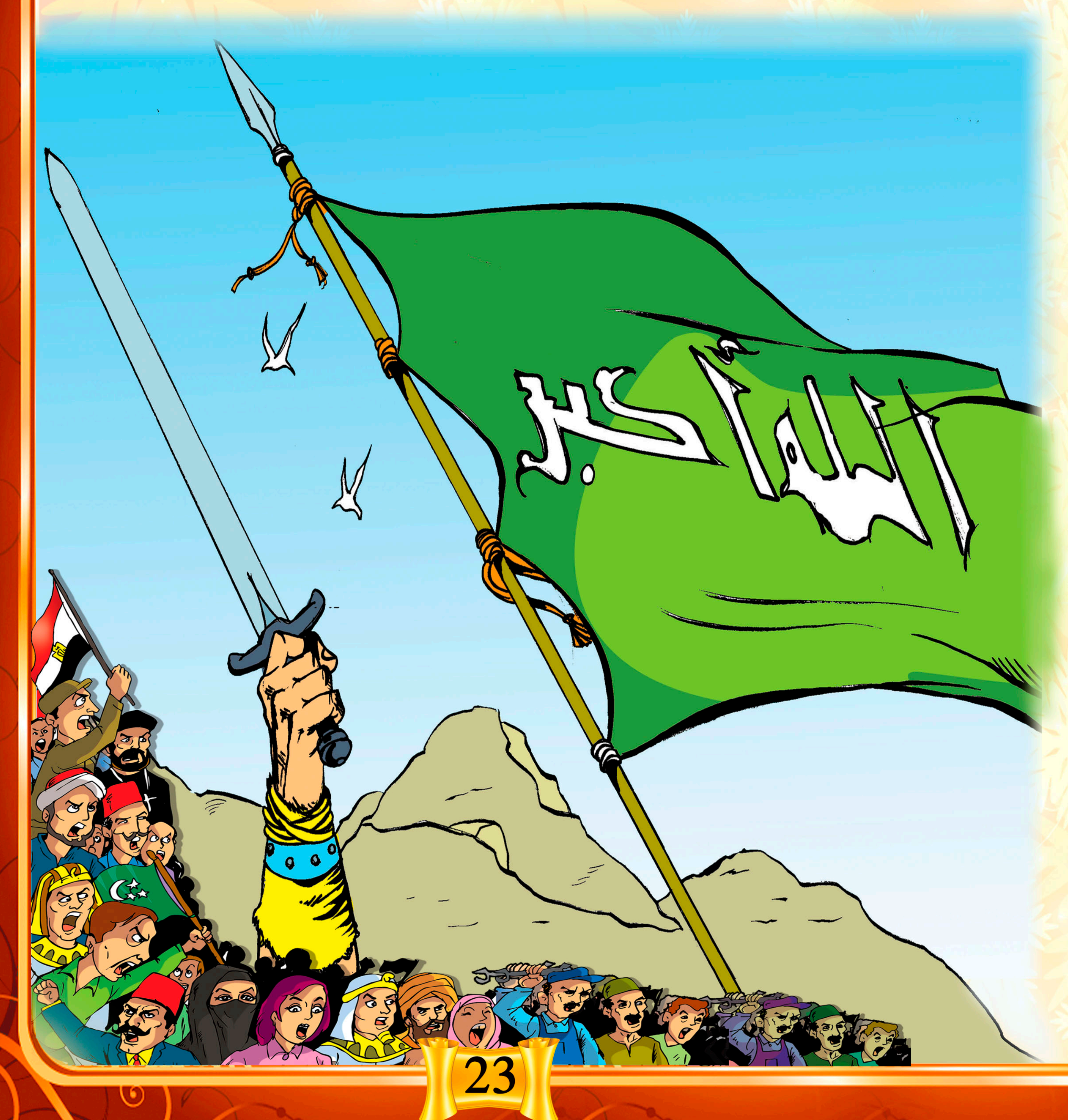
وَكُنْتُ أَمْقُتُ الإِنْجِلِيزَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَمَا يَفْعَلُونَهُ وَمَا فَعَلَتْهُ إِيطَالْيَا فِي لِيبْيَا وَإِسْبَانِيَا فِي الْمَغْرِبِ هَلْ كُنْتُم تُرِيدُونَ مِنَّا إِلا أَنَّ نَثُورَ عَلَى الاسْتِعْمَارِ وَأُسْرَةِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ، وَالصَّهَايِنَةِ الَّذِينَ سَلَبُوا أَرْضَنَا فِي فِلَسْطِينَ؟



هَذَا هُوَ قَدَرُنَا فِي أَنْ نَكُونَ أَرْضَ الثَّوْرَةِ الدَّائِمَةِ، ذَرَعْنَا بُذُورَهَا مِنْ أَوَّلِ ثَوْرَةٍ فِي التَّارِيخِ وَنَزْرَعُهَا عَبْرَ الْقُرُونِ وَالْعُقُودِ وَالسِّنِينَ..
نَحْنُ ثُوَّارٌ عَلَى مَدَى الْحَيَاةِ

• لَقَدْ عَاشَتْ مِصْرُ بَعْدَ الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ مَرْحَلَةً تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَمَّا كَانَتْ قَبْلَهَا أَيَّامَ الرُّومَانِ الْبِيزَنْطِينِيِّ الَّذِينَ أَذَاقُوا أَهْلَهَا الْمَرَارَةَ، لِذَلِكَ سَانَدُوا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، سَاعَدُوهُ عَلَى طَرْدِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهُمْ مِنْ أَجْلِ اعْتِنَاقِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، بِجَانِبِ الضَّرَائِبِ الْبَاهِظَةِ الَّتِي فَرَضُوهَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مَوْقِفُ الْعَرَبِ مِنْ (أَهْلِ الْكِتَابِ) مُتَسَامِحًا، فَقَدْ سَانَدُوا الأَقْبَاطِ وَتَرَكُوا لَهُمْ حُرِّيَةَ الْعَقِيدَةِ،، وَعَادَ الْبِطْرِيَرْكُ مِنَ الصَّحْرَاءِ الَّتِي كَانَ يُخَيِّمُ فِيهَا وَيَهْرَبُ إِلَيْهَا عَلَى مَدَى عَشْرِ سَنَوَاتٍ، وَعَادَ إِلَى كُرْسِيِّهِ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَعَادَ إِلَى كَنِيسَتِهُ وَالْمُنْتَمِينَ إِلَيْهَا، وَرَجَعَتِ اللُّغَةُ الْقِبْطِيَّةُ إِلَى سَابِقَةِ شَهْدِهَا وَازْدِهَارِهَا، يَتِمُّ بِهَا رَصْدُ الْحِسَابَاتِ وَالضَّرَائِبِ، كَمَا أَصْبَحَتْ وَسِيلَةَ التَّعْبِيرِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَآرَائِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ وَكَتَبُوا بِهَا أَدَبًا رَفِيعَ الْمُسْتَوَى، وَأَشْعَارًا بَالِغَةَ الْعُذُوبَةِ، وَمَا مِنْ حَجْرٍ عَلَيْهِمْ أَوْ رِقَابَةٍ تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ.. كَمَا أَنَّهُمْ تَقَلَّدُوا وَظَائِفَهُمُ الْقَدِيمَةَ، وَلَمْ يَسْلُبْهُمُ الْعَرَبُ إِيَّاهَا كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْبَطَالِمَةُ، وَشَغَلُوامَنَاصِبَ عَالِيَةً فِي الإِدَارَةِ،وَالْقَضَاءِ،

وَجَمْعِ الْمَالِ الْمَفْرُوضِ عَلَى الأَرَاضِي وَالْعَقَارَاتِ وَأَصْحَابِهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ خَرَاجًا أَوْ جِزْيَةً.. وَكَانَتْ هَذِهِ بَدِيلاً عَنْ أَدَاءِ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي هَجَرُوهَا مُنْذُ انْتَهَى عَصْرُ الْفَرَاعِنَةِ..



لَمْ تَكُنْ تُفْرَضُ عَلَى الْكَهَنَةِ وَالرُّهْبَانِ وَكِبَارِ السِّنِّ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ.. وَتَشْهَدُ الأَرْقَامُ بِمَا حَدَثَ:
لَقَدْ نَزَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِالْخَرَاجِ مِنْ عِشْرِينَ مِلْيُونِ دِينَارٍ إِلَى 12 مِلْيُونًا لا أَكْثَرَ.. وَعِنْدَمَا رَفَعَهَا مَنْ جَاءُوا بَعْدَهُ هَبَّتْ ثَوْرَةٌ فِي مُدُنِ السَّاحِلِ الشَّمَالِيِّ قَامَ بِهَا مَنْ سَمَّوْهُمُ الْبشموريِّينَ عَامَ 829 م، وَاسْتَمَرَّتْ طَوِيلاً إِلَى أَنْ رَضَخَتِ السُّلْطَاتُ، وَذَلِكَ كَانَ مِنْ بَيْنَ أَسْبَابِهِ أَنَّ كَثِيرِينَ قَدْ دَخَلُوا فِي الإِسْلامِ دُونَ ضُغُوطٍ عَلَيْهِمْ، بَلْ إِنَّ بَعْضَ الْوُلاةِ لَمْ يَكُونُوا يُشَجِّعُونَ عَلَى ذَلِكَ، لِكَيْ يَبْقَى بَيْتُ الْمَالِ عَلَى حَالِهِ..

وَقَبْلَ أَنْ تَنْشُبَ ثَوْرَةُ "البشموريِّينَ" كَانَتْ هُنَاكَ هَبَّاتٌ وَانْتِفَاضَاتٌ مُتَكَرِّرَةٌ وَصَلَتْ إِلَى خَمْسِ مَرَّاتٍ مَا بَيْنَ عَامَيْ 739م و773م، وَقَدْ شَارَكَ فِيهَا الأَقْبَاطُ وَالْمُسْلِمُونَ لأَنَّهَا كَانَتْ لأَسْبَابٍ اقْتِصَادِيَّةٍ، وَكَانُوا يَتَكَاتَفُونَ مَعًا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَسُودَ الْعَدَالَةُ وَيُرْفَعُ الظُّلْمُ عَنِ الْجَمِيعِ.

*وَسَوْفَ نَحْكِي لَكُمْ عَنْ هَذِهِ الثَّوَرَاتُ الْمُسْتَمِرَّةُ الَّتِي امْتَدَّتْ إِلَى أَنْ قَامَتْ أَكْبَرُ الثَّوَرَاتِ الَّتِي تُرْجِمَتْ إِلَى مَعَارِكَ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ الْقَادِمِينَ مِنَ الْغَرْبِ وَالتَّتَارِ الْوَافِدِينَ مِنَ الشَّرْقِ.

***